



لا يظنن أحد أن المحرقة السورية انتهت. لقد بدأت الآن مع توارد الأنباء عن بقاء مجرم الحرب بشار الأسد في الحكم، «لحين انقضاء المرحلة الانتقالية» كما تقول التحليلات، وهذه المرحلة قد تطول بحيث تصبح مثل تلك المرحلة المقتنة بالاحتفاظ بـ «حق الرد» على الجرائم الإسرائيلية ضد دمشق، والتي استمرت أزيد من أربعين عاماً. إنها المأساة في أكثر وجهها سخرية. إنه التحقيق الأرعن في عين الموت بابتسامة تسيل من الطرف الأيسر من الفم، ولا تأبه لروائح الجثث التي أزكمت أنف التاريخ، ولا بمشاهد الضحايا الذين ابتلواهم البحر والصحراء والهجير وبيوت «الزينكو» في مخيمات اللجوء والمنافي.

والمأساة تشير إلى هزيمة ساحقة للعقل والأخلاق والمنطق والوجدان، وسقوط مدؤ للتأخي الإنساني، والتعاطف الأممي الذي يقبل أن يواصل المجرم والسفاح عمله حتى انتهاء ولایته الدستورية، وبعد ذلك سيجد ولاة الأمر وأعضاء مجمع حملة المباخر أن لا بديل عن المجرم، فلنزوّجه سوريا بعد أن اغتصبها وأوغل في بكارتها توحشاً. إنها المكافأة التي تُمنح لقادة العار في التاريخ، وزعماء الغزو والاستباحة والهمجية باسم توازن القوى، و اختيار الحلول الأسلام، ومن نعرفه خير من نجهله، فضلاً عن الخشية الموهومة من اليوم التالي لرحيل الأسد. فمن البديل؟!

والبديل يُطرح أولاً على «المعارضة» السورية التي خذلت شعبها، وارتضت الارتهان لإرادة الدول والمنظمات، وأمزجت التوازنات التي فرّخت معارضات لا برامج حقيقة لديها، فتاهت البوصلة، وصار الطريق إلى دمشق يمر عبر بوابات العاصم والتحالفات والأجندة الدولية التي حولت الدم السوري إلى سلعة في بورصة الدم والهمجية والاستقرار المزعوم، والحفاظ على أمن دول الجوار، ونقصد هنا حصراً «إسرائيل»!

سقطت الشرعيات عن الأمم والدول والمعارضات. سقطت الشعارات التي تحكي عن العدل وتحض على حق الشعوب في التحرر والاستقلال وتنفس الهواء النظيف. سقطت الشعارات واليافطات لا لخل في بنائها أو تهافت في خطابها، بل لأنّ حملاتها سقطوا في امتحان الثبات والصمود، وأجرّوا إرادتهم وضمائرهم للعابثين الذين كانوا يرون سوريا من ثقب إبرة مصالحهم وتوازناتهم.

على أن ذلك كله لا يعني، أبداً، أن الراية سقطت. لا يسقط الظلم بالتقادم، ما يعني أن تندلع في مقبل الأيام حركة كفاحية

مدنية تفضح جرائم النظام، وتعري المتخاذلين الذين صمتوا أو توأطأوا أو أثروا وكونوا لأنفسهم مصالح خاصة باسم الثورة، تحت أغطيتها. يتعين أن يذهب الحراك المدني إلى نشر فظائع هؤلاء في كل المنابر، فالوسائل متاحة بكثرة الآن، وعالم «السوشال ميديا» مفتوح وسهل، ولا مجال للإنكار أو الإفلات من العقاب.

لا بد من توثيق جرائم النظام وفظاعاته، والتحرّك نحو تغيير النظام بأدوات أكثر ذكاءً من تلك الأدوات المتهيئة التي ساکتها المعارضة التي مع الأسف ضمت وجوهاً نضالية محترمة، لكنها كانت بلا ملامح ولم ترك بصمتها، وانخرطت في قطيع الدهماء والباصمين والموقعين والمتنازليين، حتى لم يبق لديهم ما يتنازلون عنه.

الحرب بدأت الآن، والمواجهة قدحت نارها. فإذا كان التاريخ والجغرافيا وإرادة الأمم والأخلاق قد تهافت وارتضت أن تزوج سورياً إلى مغتصبها، فهذا لا يتعين أن يلقى رضا الناس وطأطأة رؤوسهم وإنعائهم. لا بد أن يكون الرفض مدوياً ضد هذا الخراب العام والطام. إلا إذا أضحي السوريون مثل الليبيين والعراقيين يتغنون بفضائل القذافي وصدام حسين، وبأنهما وفراً للأمن، مع أنهما سلباً شعبيهما الحرية. إذا كان لسان السوريين هكذا، فإن اللعنة لا بد أن تحل علينا جميعاً، وأن تذهب الخطابة والرطانة وقيم الكرامة والتنوير والحق، إلى الجحيم. نعم إلى الجحيم، وبئس بذلك مستقرأً...!

الحياة

المصادر: